عنوان المحاضرة العاشرة :

شعريـة السـرد الصـوفي

عنوان المحاضرة العاشرة : شعرية السرد الصوفي

أولًا–السرد في الأدب الصوفي :

مماهو معلوم أن التصوف العربي اصطبغ بطابع إسلامي ، وظهرت تجلياته في فنون أدبية .

1–مفهوم التصوف:

نقصد بالتصوف هنا التصوف الإسلامي ،المتأثر بالتعاليم الإسلامية،التي أقرها القرآن الكريم، ودعت إليها السنة النبوية،وفي هذا الصدد نبدأ بتعريف التصوف في اللغة ثم الاصطلاح.

أ–التصوف في اللغة:

إن التصوف في الأصل اللغوي "مشتق من كلمة "صوف" ، والصوف للغنم كالشعر للماعز والوبر للإبل والجَمع أَصْواف، والصُوف :هو شعر يغطي جلد الضأن،وتَصوَّفَ يَتَصَوفُ تَصوُّفًا فهو متصوِّف ،وتصوف الرجل: لبس الصوف ، وتَصوَّفَ :انعزل وابتعد عن مخالطة الناس،والتصوف من صفا الصفو والصَّفاء نقيض الكدر،والصفوة:خيار الشيء وخلاصته،والاصطفاء الاختيار ،ومنه الصفوة ومنه النبي صفوة الله من خلقه ومصطفاه »

ومنه من دلالات التصوف في اللغة الصفاء والنخبة والامتثال لأوامر الله «وكثر الخلاف وطال حول اشتقاق كلمة الصوفي،فجمهور الصوفي يذهبون إلى القول بأنه مشتق من الصفاء،وأن الصوفي هو أحد خاصة أهل الدين ».

ب–التصوف في الاصطلاح:

يرى النقاد أن الأدب الصوفي كان نتاجًا لجنسين مختلفين :الجنس السامي ويمثله الأدب الصوفي والعربي والجنس الآري ، ويمثله الأدب الصوفي الفارسي،وبين الجنسين اختلاف كبير في التصوف والنتاج والمزاج ».

نلاحظ كثرة التعاريف اللغوية المقدمة للتصوف، وهي مختلفة وبعيدة عن مفهوم التصوف الذي نتناوله .

ومنه فالتصوف هو غرض أدبي مستقل نجده في الشعر والنثر معًا، وبدأ ظهور النثر الصوفي في القرن الثاني للهجرة .

2– أنواع التصوف :

ظهر في التاريخ الإسلامي أنواع من التصوف أبرزها مايلي :

أ– التصوف السني: ظهر عند الامام الغزالي رحمه الله .

ب–التصوف الفلسفي:يختلف عن التصوف السني،في مزج أصحابه أذواقهم الصوفية بأنظارهم العقلية،وظهر التصوف الفلسفي مع تطور الفكر العربي الإسلامي وامتزاجه مع الثقافات الأجنبية كاليونانية والفارس».

والملاحظ هو سيادة التصوف السني في الثقافة العربية الإسلامية لاعتداله، واتباعه المنهج الاسلامي الموافق لتعاليم الدين الإسلامي.

3–أشكال التعبير الرمزي الصوفي:

لقد تنوعت طرق التعبير الرمزي الصوفي في تاريخ التصوف الإسلامي إلى ثلاثة أشكال رئيسية :

أ–الكتابة النثرية : بلغة موغلة في الاستغلال والتعمية على نحو مانجد في مؤلفات عبد الكريم الجيلي.

ب–الأقاصيص الرمزية : مثل قصة حي بن يقظان كتبها ابن سينا ثم ابن طفيل، وأيضًا رسالتي "أصوات أجنحة جبرائيل "و"الغربة

الغربية" للسهروردي .

ج–الشعر الصوفي : استطاع الشعراء من الصوفية أن يصوروا أدق المعاني الصوفية من خلال قصائدهم المطولة».

إن هذه الأشكال وُجدت في الأدب العربي، وكان الشعر عند الصوفية هو الغالب لسهولة النظم فيه، وسهولة تداوله بين طبقات المتعلمين .

3– خصائص أدب الصوفية :

بدأ ظهور الأدب الصوفي من أوائل القرن الثاني الهجري،واستمر في العصور التالية وخصوصًا في القرنين الثالث والرابع، وقد شهد اكتمال التصوف الإسلامي فيهما.

تميَّز الأدب الصوفي بخصائص تميزه عن الآداب الأخرى،ومنها السمو الروحي والمعاني النفسية العميقة والخضوع التام لإرادة الله القوية، وبعد الخيال والشطحات كما يتصف بالغموض والمعاني الرمزية،وكان للصوفية أدب غزير ينطق بما تنطوي عليه سرائرهم، وتخفيه ضمائرهم ويشف عن حكمة بالغة،وفهم واسع وعقل راجح،وخيال خصب ، فلقد جاء أدبهم نتاج قرائح صافية وقلوب واعية، واشراقات إلهية ميزته عن سائر المدارس الأدبية،وذلك لعنايته الفائقة بالرمز والغموض والإشارة،وقد كانت له ألفاظه الخاصة به وأساليب الأدبية،وأساليبه القاصرة عليه،وتناوله للمعاني والأفكار،فلقد تناولوا أغراض الحب الإلهي،والحنين والوجد والبقاء والغناء ووصف الخمر والغزل الإلهي والزهد بصورة لايفهمها إلا من سلك طريقهم ».

تميز الصوفية بلغة رمزية خاصة لايفهما إلا من يشتغل على التصوف ماجعل معانهم بعيدة وغامضة على عامة الناس«وكان لكل طائفة من العلماء الصوفية ألفاظ يستعملونها « وانفردوا بها عمن سواهم، وتوطئوا عليها لأغراض لهم فيها من تقريب الفهم على المخاطبين بها، أو تسهيلة على أهل تلك الصنعة في الموقوف على معانيهم بإطلاقها،وهذه الطائفة الصوفية يستعملون ألفاظًا فيما بينهم قصدوا بها عن معانيهم لأنفسهم والإخفاء والستر على من باينهم في طريقتهم لتكون معاني ألفاظهم،مستبهمة على الأجانب غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها».

ومنه توفر للأدب الصوفي خصائص ميزته عن فنون الأدب العربي الأخرى ، فهو أدب كُتب لغاية رمزية سامية قصده الأديب الصوفي من وراءها لغايات كثيرة .

أ– الرمزية في الأدب الصوفي :

مماهو معلوم أن الرمزية العربية اعتمدت على الركنين:الإيجاز وغير المباشرة في التعبير، وكانت الرمزية الإسلامية رمزية في الأسلوب وتجلت الرمزية العربية في أحاديث رسول الله (ﷺ) فكانت ذات بلاغة رائعة عالية ، وكان يوجز غالبًا، وتأثر أدباء الصوفية بأسلوب الرسول (ﷺ) للصوفية من الرمزية والأدب الرمزي ماليس لغيرهم، رمزية في المذهب،وفي الأسلوب،وفي المعاني ،وفي الأخيلة مما لاتتصل إليها روائع الاستعارة والكناية والتمثيل».

وطغت على الأدب الصوفي صفة الرمزية ،وتميّزت معظم نصوصهم بالإفراط في استعمال الرموز والأخيلة وقد اتخذ الصوفية لغة خاصة بهم ومسميات لايعرفها إلا هم،ولكنهم فعلوا في اللغة كما كل العلماء في اللغة العربية،فأخذوا الألفاظ العربية وأطلقوها على مدلولات خاصة».

عنوان المحاضرة العاشرة : شعرية السرد الصوفي

ونأخذ على سبيل المثال نموذج المتصوف عبد الجبار النفري «وهو يعد أحد صوفية القرن الرابع ممن غلبت عليهم الرمزية في التعبير في كتابه"المواقف والمخاطبات" ،وجاء في قوله :"قال لي "الحق" :الحرف يعجز عن أن يخبر عن نفسه ،فكيف يخبر عني "».

انفرد النفري بأسلوب خاص في السرد الصوفي ميزه عن غيره من المتصوفة ،فلاحظنا إيجاز عباراته ،وكثافة معانيها وعمق دلالاتها «وأما ابن عربي فعلى الرغم من نهجه نهجًا رمزيًا مغلقًا في كثير من الأحيان ،نراه يشغل القارئ بمعانيه لا بألفاظه ولا عجب في ذلك، فلم يكن الرجل بلاغيًا محترفًا،ولكنه مع ذلك نهج منهج الرموز والإشارات التعبيرية في ثنايا كتبه الكثيرة وذلك في قوله"فافهم إشاراتي برموزي وكن فطنًا" ».

احتفى ابن عربي بالرموز البعيدة، وسلك أسلوب التعبير بالإشارة «والعمل الصوفي في النهاية هو عمل فني،مفعم بالرموز والإيحاءات والتلويحات، التي لاتنكشف إلا بضرب من التذوق، فلقد تكلم الصوفية عن معان شاهدوها حين انفتحت عيون قلوبهم ،وانطبقت عيون رؤوسهم—كما تقول عبارة النفري- ومن هنا كان علينا أن ننظر إلى كلماتهم بعين القلب...ومن الطبيعي أن نرى هذا الميل إلى التكلم بلغة صوفية عند التوحيدي إلا أنها تأخذ في الجفاء والبعد عن الجمالية، إذ اعتمدت كما رأينا آنفًا على الرمز والكلمات الشبيهة بالطلاسم غير المفهومة، إلا عند أصحابها مادامت مستعصية على عموم القراء،مع أنها قدمنا لغة على الإجمال متناسبة مع ذلك العصر،فتعد سهلة واضحة في إطارها الزمني ، ولاتعد شديدة الغرابة ومبهمة الدلالة،إذا عرضاها على المتلقي المالك لأقصى الثقافة اللغوية والقدرة الاستعابية».

تميز أسلوب الصوفية بالصياغة الرمزية الرفيعة، والأسلوب الرمزي أدى لغة للصوفية ،وصعوبة فهم معانيهم،ومع ذلك كان لهم خطاب أدبي مميز فرض نفسه في الساحة الأدبية على مر العصور .

4- شعرية سرد الخطاب عند عبد الجبار النفري:

في البداية نتعرض للخصائص الأدبية في الخطاب الصوفي عند النفري،حيث شكل النفري « شخصية الراوي والبطل معًا، وأما الأحداث في القصة،فهي تحكم الخوف واستسلام الرجاء،وتحوّل الغنى نارًا واللحاق بها،واحتجاج الفقر..الخ، والنص مشحون بالمشاعر العاطفية وأسلوب النفري رمزي يتميز بصياغته الرفيعة، والنفري في استخدامه لأسلوب الرمز متابع للصوفية».

برع النفري في رسم الصورة التي عبرت عن عالمه الروحي والفكري «وإن المجرد في النص هو عالم حقيقي يُبشر به النفري ،والمعرفة التي يُحصلها الواقف (العارف الواصل)هي معرفة حقيقية لامجازية،فالتجربة التي يعيشها النفري يرفضُ تسميتها مجازًا أو تشبيهًا، والميل الصوفي نحو تجسيد المجرد يعكس نظرة خاصة نحو (الجسد) ففي الرؤية النفرية مثلًا يخاطب الله النفري في أحد المواقف:"إن لم ترني من وراء الضدين رؤية واحدة لم تعرفني،فهناك طرفان ضدان (الله والإنسان) .

ونجد أن الصورة التشبيهية في النثر الصوفي هي صورة موجزة، وسريعة وموحية؛لأنها انعكاس للفكرة في كلمات كانعكاس الصورة في مرآة ،وهدفها هو وصف حالاتٍ وجدانية مشحونة بالعاطفة .

إن استعارات النفري هي صورة ذهنية تعكسُ ميلًا نفريًا نحوتجسيد المجرّد ،وتشخيصه وبث الحياة فيه، وموقف الموت هو أحد المواقف النفرية المبنية على الاستعارة».

ومنه كانت الاستعارة أحد أهم الخصائص الأدبية في الخطاب الصوفي عند النفري،وظهرت معالم السرد عن النفري في كتابي

المواقف والمخاطبات في العناصر الآتية :

أ-أسلوب الوقفة : يبدأ بعبارة "أوقفني"

ب-أسلوب المخاطبة:قد يوحي أسلوب المخاطبة بأن الله يخصُّ النفري من عباده،لكن الحقيقة هي أن المخاطبة تتوجه لعموم العباد،أما التخصيص الذي يوحي به النفري، فهو تخصيص محبة ،فبين النفري والله حب متبادل لايلبث أن يكبر ويعم وتتبادله الكائنات والموجودات».

نلاحظ بأنه على الرغم من كون كتابي النفري (المواقف والمخاطبات)كتابي فكر فلسفي صوفي ؛ فإنهما يخلوان من صور فنية ،في موقف الوقفة يُشبه الوقفة بباب الرؤية،وفي المخاطبات يُشبه همّ الواقف بالشجرة ،والكون بالكرة والعلم بالميدان، ونصوص النفري ذات طابع قصصي واضح ، فهو بناء فنيّ متكامل ،بداية ووسط وخاتمة وشخصيات هي: الخوف والرجاء والغنى والفقر والأشياء والخليقة والعمل».

هنا اختلاف في نمط السرد الصوفي ، فهنا النفري جعل من الحالات الإنسانية منخوف ورجاء وغنى فقر كشخصيات قامت بأدوار في إطار قصة مكتملة فيها بداية وعقدة وحل .

ج- دلالة الحرف عند النفري:

استخدم النفري كلمة الحرف ،وهو في بعض الأحيان يستخدم كلمة المحروف بمعنى المدلول، أو الشيء الذي يصفه الحرف أو يتوجه إليه» .

د-الاقتباس من القرآن الكريم :

أورد النفري نصوصًا واصفة خاصة بآليات قراءة النص القرآني،كما أنه شغلها في قراءته لآيات قرآنية ،وكان يورد المقاطع الوصفية كخلاصة لتجربة قراءة النص القرآني،فكان لذلك يقترب من الدراسات المعاصرة التي تجعل التنظير محايثًا للتجربة» .

ونجد أن الاقتباس من القرآن الكريم هو أسلوب منتهج في لغة التأليف الصوفية ،فيستلهمون منها مادتهم .

هـ- الغموض في سرد النفري :

ومن مظاهر تجليات الغموض الصوفي في المخاطبة نجد تجلي الغموض في الخطاب الصوفي عند النفري في مظاهر عديدة منها :

أ- تعدد التسميات لمسمى واحد :مثل المرأة من أسمائها: الأرض والشمس .

ب- صمت النفري ؛ فهو لايتكلم بل يتحدث بلسان الله الذي له حرية الكلام.

ج- أزمة اللغة العادية ،إذ يرى النفري أنها تستطيع التعبير عن التجربة الصوفية.

د- الالتفات والانتقال الدائم والسريع للضمائر بين الخطاب والغيبة .

و- الجدل مظهر آخر من مظاهر الغموض على صعيدي الشكل والمضمون».

كل تلك الخصائص أكدت على جديد الخطاب الصوفي عند النفري من اللغة الرمزية المنتهجة،والمصطلحات الصوفية الخاصة به ،ودلالات المعاني العميقة .

«وإن الفكرة الأساسية التي بدأ بها النفري المخاطبة ،وهي بشارة تغيير الواقع ،هي الفكرة التي أنهاه بها ، وهي أفول ليل الظلم والحرمان والجوع ».

واكتسبت عبارات المتصوفة طابعًا خاصًا للغاية ،ولغة جديدة في نظامها وتركيبها ،وقد رأينا لجوء هؤلاء إلى إيجاد بعد آخر للكلام ، واخترق الصوفية للغة التداول والتواصل؛لأنها لاتستجيب للمقامات والأحوال التي تعيشها ، ولأن هذه اللغة تصبح هي بذاتها حجابًا ،لذا سعت إلى خلق لغة ثانية داخل الأولى ،وهي لغة الرمز والإشارة ».

نلاحظ توفر العديد من الآيات القرآنية بين عبارات النفري ،وإن كان يوظفه لخدمة الفكرة التي يتناولها بالحديث «ومماهو جد شائع أن الكتاب الصوفيون مولعون باقتباس الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وأما النفري فشديد الابتعاد عن هذا التقليد،مع أن في ميسورك التوكيد على أن المناخ الإسلامي يشكل خلفية واضحة للنصوص النفرية أو لمعظمها».

حفلت كتابات النفري بالكثير من الفنون البديعية، وإن نصوص النفري (في المواقف أو المخاطبات)تحفل احتفالًا شديدًا بالمحسنات البديعية، وبفضل هذا الحضور الغزير للخيال في "المواقف" و"المخاطبات" وخاصة في الكتاب الأول، فقد أُفعمت النصوص النفرية بالصور الفنية ذات الطابع الأدبي، ولقد بنيت الرؤى الخيالية في أدب النفري على مبدأ المفارقة أحيانًا ، وعلى مبدأ خرق العوائد أحيانًا أخرى».

ومن الصور بالمحسنات البديعية في كتاب المواقف والمخاطبات نورد قول عبد الجبار النفري:«وقال لي من يعلم عاقبته ،ويعمل يزداد خوفًا، وقال لي الخوف علامة من علم عاقبته، والرجاء علامة من جهل عاقبته ».

نلاحظ وجود صور الطباق السلبي بين علم وضده جهل ،والجناس في يعمل ويعلم ، ويكثر السجع بين فقراته الصغيرة وغيرها من الصور البديعية، التي زخر بها خطاب النفري «ويعد النفري شديد القدرة على التعبير حتى لكأنه قد سحر الألفاظ فصارت تأتيه طوعًا لاكرهًا ، وأما عند الطرف الثاني من المعادلة ، فإن النفري لايثق باللغة ،ولايقيم لها وزنًا كبيرًا في مضمار البلوغ إلى الحق الصرف، ويقول النفري:" كلما اتسعت الرؤيا ضاقت العبارة" ويعني ذلك كلما ازدادت الرؤيا سعة ازدادت اللغة ضيقًا بالفعل ؛لأنها أعجز من أن تحمل ثقل المعاني القامة من وراء الغيب،وأما القول الثاني،وخلاصته أن اللغة حجاب يحجب الحقيقة ،فلا يسعك استيعابه، إلا إذا استوعب مذهب النفري،وخلاصة هذا المذهب هو أن ترى لا أن تعرف».

ومنه في الأخير يكمن القول بأن تجديد الصوفية في سردهم للخطاب الصوفي يتمثل في استخدامهم لغة رمزية خاصة بهم في التعبير ، وصدق معانيهم وعمقهما زاد من انتشار طريقتهم ، وكان لهم شعرية صوفية خاصة في نصوصهم الأدبية وهنا نشيد بإبداع النفري في السرد الصوفي .